الوفاء بالعهد

على جبل سيناء قال الرب لموسى : « لا تكذب » . ولقد أضاف قانون الفروسية عبارة أخرى تنظم سلوك الفارس : « وكن وفيًّا بعهدك ».

إن الوفاء بالعهد فضيلة الفرسان ، بل إنها جوهر فضائلهم كلها ، لأنها هى التى تشرحها جميعاً . إنها كالصراحة ، نتيجة من نتائج القوة والشجاعة ، فإذا كان المرء قويًّا لا يخاف ، أصبح صريحاً ، وإذا كان المرء شجاعاً باسلا أصبح يتحمل مسئولية آرائه ويتولى الدفاع عنها ، شاهراً سلاحه إن استدعى الأمر . ولقد قال « كورنى » : « إن كل رجل شجاع رجل يستمسك بقوله »[1] .

وما أكثر ما يحمل المرء وفاؤه بعهده إلى معارضة مصالحه الخاصة . فلا فضل لامرئ فى تنفيذ التزام يعود عليه بالمنفعة . وهكذا يفترض الوفاء بالعهد نفساً نزيهة ، بل ويتضمن أن يقف المرء مواقف تضر بمصالحه الشخصية ، وتحرص على مصالح غيره . أو ليست الشجاعة والنزاهة وروح التضحية هى قواعد الفروسية ؟ إن إدراك احترام العهد ، يدل على انتهاء عصر الهمجية وإشراق فجر الحضارة . فلقد كفت القوة الغاشمة

---

(١) كورنى : « الكاذب » ، الفصل الثالث .

— حين ظهر هذا المعنى الجديد — عن تمثيل الحق وإملاء القانون ، ولم تعد المصلحة هى الحافز الوحيد والقائد المطلق لأفعال البشر .

ومنذ اليوم الذى استطاع فيه الناس أن يعتمدوا على الوعد ، أمكنهم أن يتفرغوا دون خوف لأعمال السلام الإنشائية ، ما داموا يضمنون أن الوفاء بالوعد مصلحة تفوق ما عداها من المصالح . وهكذا انتهت حياة الشعوب وحياة الأفراد إلى الاعتماد على العهد اعتماداً يكاد أن يكون كاملاً . فإننا نولى ثقتنا وعداً ، أو توقيعاً ، أو التزاماً ، أو معاهدة تمت فى حرية . فإذا « أعطى المرء كلمته » — وهذا التعبير يحوى تقليداً فعلياً — أعطى فى الوقت نفسه ما وعد به . إن وعد الحر دين عليه ، فلا يجوز له أن ينكر قوله ، أو يسحبه ، أو أن يبتره أو يساوم فيه . إنه واقع ينتمى إلى ماض لا رجعة فيه ، وإن كان تنفيذه يتوقف على ظروف المستقبل . ولقد وجد أن هذا الوفاء بالعهد معنى من معانى الجمال والصلاح وحسن العواقب بحيث ارتفع إلى قدسية الدين ، وبات من يحنث بعهده من الأفراد أو الأمم يعتبر آثماً يتعرض لازدراء الناس ولعنة الله ، وكل خيانة إنما تحمل فى باطنها العقاب عليها ، وكثيراً ما يكون الجزاء من جنس الخطيئة .

لقد قدر العرب الصراحة حق قدرها . وخلطوا بينها وبين الصلاح . وإذ كانوا يحبون الصدق فى القول ، فقد جعلوا كلمة « الصدق » شاملة لكل ما هو صالح . « والرجل الصادق » فى لغتهم ، ليس الرجل الصريح

المخلص فحسب ، بل إن لهذا التعبير معنى أعم ينطبق على الرجل الممتاز فى شتى النواحى . إن كلمة « صادق » ترادف فى العربية كلمة « صالح ». وإذا كان الصدق والخير شيئاً واحداً لدى شعب من الشعوب ، فتلك شهادة بليغة تدل على خلقه .

لقد كانوا لا يعرفون الكذب ، فالكذب ملاذ الجبان ، والعرب أهل فخار ونزال . لقد كانوا يقدسون العهد[1] . وكان العهد دينهم القومى قبل ظهور الإسلام ، ديناً تعتنقه القبائل المسيحية واليهودية والوثنية على السواء . وهكذا ، فى بلد أهله بدو رحل وفرسان صناديد ، وحيث لا توجد حكومة ولا قضاء ولا شرطة ، كان العهد يقوم مقام القوانين والمحضرين وجهاز العدالة الحديثة بأكمله .

تمثلوا تلك القبائل التى تتطاحن أبداً ، وأولئك الفرسان الهائمين الذين ينشدون موقعة أو يسعون إلى غارة أو يلتمسون الأخذ بثأر ، لا يكاد يهل هلال شهر الهدنة عليهم ، حتى تقف الحرب وكأنها أخمدت بفعل السحر ، وإذا بالقطعان تسوم بلا رقيب ، والسلع تتنقل دون خطر ، ولا خوف على الرجال أو الدواب ولا ما دون ذلك . فقد أغمدت السيوف الهندية ، وانكمشت الضغائن إلى حين فى أعماق القلوب . وأصبح المرء

---

(١) « ليس بين الشعوب من هم أشد تقديساً للقسم من العرب . »
(هيرودوت ج ٣ ص ٨) .

يستطيع أن يجتاز سالماً بلد ألدّ أعدائه بل ومحلته ، ولعله يلقى — وجهاً لوجه — ابن من قتله ، ويفيض قلبه بالحقد عليه ولكنه يمضى دون أن يلحق به ضر ، فإن العهد فى الصحراء أعظم منج . ولقد كان على الرجل — فى النوادى العامة ، فى موسم الحج أو سوق عكاظ أو ذى المجاز بالقرب من عرفات — كان على الرجل أن يسمع دون أن يبدى غيظه قصائد فى مدح القبيلة المعادية ، والإشادة بمآثر غالبه وغريمه ، وأن يتقبل فى برود نغزات القول ، وأن يتلقى فى صدره ما يسدده الشعراء من سهام الفصاحة ، دون أن يبدر منه تصرف غير أنيق ، بل أدب عيوف ، وسلوك كريم خليق بسيد القوم الذى يعلم « أن يوماً لنا ويوماً علينا » ، وأنه سوف ينتقم عن قريب .

ألا ما أروع ما تنطوى عليه كلمة « الوفاء » من ضبط للعواطف ، وسمو بالنفس ، وفخر ، ونبل ، وجلال !

هو ذا المسلم « كورنوماران » Cornumarant فى « أغنية بيت المقدس » يعد المسيحيين بأن الهدنة ستدوم ثلاثة أيام ، فيحفظ وعده رغم تعارض ذلك ومصالحه . لقد وضع الشاعر على لسانه هذه الكلمات النبيلة : « خير لى أن أموت من أن أحنث فى عهدى » (١) .

وهل توجد تحية أبلغ من تحية يزجيها العدو ؟ إنها الشهادة القاطعة

---

(١) « أغنية بيت المقدس » ، عن جوتييه ص ٨١ .

على ولاء العرب ، لأنها صادرة عن أشد مقاتلى العصور الوسطى تعصباً ، أولئك الذين كانوا لا يتصورون الفضيلة إلا مسيحية . ولكن لنصعد إلى المنبع ، ولنغترف من نهر الوفاء العربى الزاخر بعض العبر والدروس . فإن هذه اللمحة التى أوردتها « أغنية بيت المقدس » ليست سوى درس موجه لطائفة من المقاتلين « كانوا دائماً مستعدين للقيام بالحرب أو لإقرار السلام، على شرط أن يأملوا فى ذلك كسباً لهم[1] » .

ولئلا نكثر من الاستشهاد إلى غير حد ، سوف نتخير الأمثلة على نحو يتيح للقارئ أن يلم إلماماً سريعاً بمجال الوفاء العربى الكبير .

أولا — الوفاء بالوعد :

كان « المنذر بن ماء السماء » قد جعل لنفسه يومين فى السنة ، يجلس فيهما ، يسمى أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس ، فأول من يطلع عليه فى يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل شوما أى سوداً ، وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود ثم يأمر به فيذبح ويغذى بدمه الغربان . . .

---

(١) أوجوستان تييرى : غزو النورمانديين لانجلترا ، جـ ٣ ص ٢٨٢ و ٢٨٧ . راجع فى جـ ٤ ص ٥٦ ، ٥٧ و ٨٤ و ٨٥ و ٢٨ ، و ٢٩ سيرة هنرى السادس الألمانى مع ريشار قلب الأسد ، وسيرة ريشار مع كل من الكونت دوفرنى وفيليب أوجوست .

راجع كذلك ستانلى لين بول : صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس ، ص ٢٢٥ وما يليها .

ثم إن رجلاً من طيء يقال له حنظلة بن أبي عفراء أو ابن أبي عفر ، قد مر به في يوم بؤسه فقال له :

— أبيت اللعن ، والله ما أتيتك زائراً ، ولأهلي من خيرك مائراً ، فلا تكن ميرتهم قتلى .

فقال :

— لا بد من ذلك ، فاسأل حاجة أقضيها لك .

فقال :

— تؤجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي وأحكم من أمرهم ما أريد ، ثم أصير إليك ، فأنفذ فيّ حكمك .

فقال

— ومن يكفل بك حتى تعود ؟

فنظر في وجوه جلسائه ، فعرف منهم « شريك بن عمرو » فأنشد يقول :

يا شريك يا ابن عمـــرو ما من المـــوت محالـــه
يا شريك يا ابن عمـــرو يا أخا من لا أخا لـــه
يا أخا شيبـــان فك الـــ ـيوم رهناً قـــد أنالـــه
يا أخـــا كـــل مضاف وحيـــا من لا حيا لـــه

فوثب شريك وقال :

ـ أبيت اللعن ، يدى بيده ، ودمى بدمه إن لم يعد إلى أجله .

فأطلقه المنذر . فلما كان من القابل ، جلس فى مجلسه ينظر حنظلة أن يأتيه ، فأبطأ عليه ، فأمر بشريك فقرب ليقتله . فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم ، فتأملوه فإذا هو حنظلة قد أقبل متكفناً متحنطاً ، معه نادبته تندبه ، وقد قامت نادبة شريك تندبه . فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما ، فأطلقهما وأبطل تلك السنة[1].

ثانياً ـ الوفاء بالوعد للضيف :

انفض عن الأمير الشاعر « امرئ القيس » أنصاره ، فجاب بين القبائل يستنجد بها على « بنى أسد » الذين قتلوا أباه حتى بلغ حصن « الأبلق » ، حيث رحب به « السموءل » . ثم سأله « امرؤ القيس » أن يكتب له إلى « الحارث بن أبى شمر الغسانى » بالشام ليوصله إلى قيصر . وسار حتى انتهى إلى قيصر .

وكان امرؤ القيس قد أودع السموءل أدرعاً مائة. فأتاه « الحارث » ليأخذها منه ، فتحصن السموءل منه . فأخذ الحارث ابناً له غلاماً ـ وكان فى الصيد ـ فقال :

---

(١) الأغانى جـ ١٩ ص ٨٦ وما بعدها .

ـ إما أن سلمت الأدراع إلى ، و إما أن قتلت ابنك .

فأبى السموءل أن يسلم إليه الأدراع . فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه قطعتين . فقال السموءل فى ذلك :

وفيت بذمة الكندى إنى ... إذا ما خان أقوام وفيت
وأوصى عادياً يوماً بأن لا ... تهدم يا سموءل ما بنيت
بنى لى عادياً حصناً حصيناً ... وبئراً كلما شئت استقيت

ثالثاً ـ القبيلة بأجمعها تفى بعهد أحد رجالها :

فى تلك السنة (حوالى ٦٠٠) لم ينزل ماء السماء ، وأصاب القحط أرض مدر ، واشتد البؤس بأهلها . فاجتمع بنو تميم وتشاوروا ، وقرروا أن يرسلوا إلى ملك الفرس طالبين أن يأذن لهم بأن ينزلوا سهول العراق الخصبة . وأوفدوا لهذا الشأن قبل كسرى برويز ، حاجب بن زرارة . . . . فاستأذن عليه ، فأوصل اليه : « أسيد العرب أنت ؟ قال : لا ؛ قال : فسيد مضر ؟ قال : لا ؛ قال فسيد بنى أبيك أنت ؟ قال : لا » . ثم أذن له .

فلما دخل عليه ، قال له :

ـ من أنت ؟

ـ سيد العرب .

ـ أليس قد أوصلت إليك ، أسيد العرب ؟ فقلت لا ، حتى اقتصرت

بك على بنى أبيك فقلت لا ؟

ـ أيها الملك ، لم أكن كذلك حتى دخلت عليك ، فلما دخلت عليك صرت سيد العرب .

قال كسرى :

ـ آه ، املئوا فاه درًّا .

ثم قال :

ـ إنكم معشر العرب غدر ، فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد ، وأغرتم على العباد ، وآذيتمونى .

قال حاجب :

ـ فإنى ضامن للملك ألا يفعلوا .

ـ فمن لى بأن تنى أنت ؟

ـ أرهنك قوسى .

فلما جاء بها ، ضحك من حوله وقالوا :

ـ لهذه العصا ينى .

قال كسرى :

ـ ما كان ليسلمها لشىء أبداً .

وقبضها منه ، وأذن لهم أن يدخلوا الريف .

ومات حاجب بن زرارة ، فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه . فقال له :

ـ ما أنت الذى رهنتها .

ـ أجل !

ـ فما فعل ؟

ـ هلك وهو أبى . وقد وفى له قومه ووفى هو للملك .

فردها عليه ، وكساه حلة[1] .

رابعاً ـ قبيلة تخوض معركة دفاعاً عن وعد قطعه أحد أبنائها :

غضب كسرى برويز على عامله النعمان ملك الحيرة ، فخشى النعمان على حياته وماله ، واستجار بهانئ بن مسعود ، أحد رؤساء بنى شيبان . ورحب هانئ بالملك المخلوع وأجله . وقال له :

ـ قد لزمنى ذمامك ، وأنا مانعك مما أمنع نفسى وأهلى وولدى منه ما بقى من عشيرتى الأدنين رجل . وإن ذلك غير نافعك ، لأنه مهلكى ومهلكك . وعندى رأى لك ، لست أشير به عليك لأدفعك عما تريده من مجاورتى ، ولكنه الصواب .

ـ هاته .

ـ إن كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه إلا أن يكون بعد الملك سوقة . والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريماً خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك ، هذا إن بقيت . فامض إلى صاحبك واحمل

---

(١) عن « العقد الفريد » ج ٢ ص ٢٠ .

إليه هدايا ومالا ، وألق بنفسك بين يديه ، فإما أن صفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً ، وإما أن أصابك ، فالموت خير من أن تلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها ، وتأكل مالك وتعيش فقيراً مجاوراً ، أو تقتل مقهوراً .

— وكيف بحرمى ؟

— هن فى ذمتى ، لا يخلص إليهن حتى يخلص إلى بناتى .

— هذا وأبيك الرأى الصحيح ، ولن أجاوزه .

ثم اختار خيلاً وحللا من عصب اليمن وجوهراً وطرفاً كانت عنده ، ووجه بها مع رسوله إلى كسرى ، وكتب إليه يعتذر ويعلمه أنه صائر إليه . فقبلها كسرى وأمره بالقدوم . وعاد إليه الرسول فأخبره بذلك ، وأنه لم ير له عند كسرى سوءاً . فمضى اليه . . . فلما بلغ كسرى أنه بالباب ، بعث إليه فقيده ، وقال ابن الكلبى : ألقاه تحت أرجل الفيلة ، فوطئته حتى مات[1] .

ولما وضح لكسرى[1] واستبان أن مال النعمان وولده عند ابن مسعود ، بعث إليه كسرى رجلاً يخبره أنه قال له : « إن النعمان إنما كان عاملى ، وقد استودعك ماله وأهله ، فابعث بها إلى ، ولا تكلفنى أن أبعث إليك

---

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٢٩ وما يليها .

(٢) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٣٤ .

ولا إلى قومك بالجنود تقتل المقاتلة وتسبي الذرية » .

فبعث اليه هانئ : « إن الذى بلغك باطل ، وما عندى قليل ولا كثير . وإن يكن الأمر كما قيل ، فإنما أنا أحد رجلين ، إما رجل استودع أمانة فهو حقيق أن يردها على من أودعه إياها ؛ ولن يسلم الحر أمانته ، أو رجل مكذوب عليه ، فليس ينبغى أن تأخذ بقول عدو أو حاسد » .

ونفذ كسرى وعيده ، وسير جنوداً كثيرة لتأتيه بمال النعمان وتقتل الرجال وتسبي النساء والأطفال . ولكن قبيلة بكر نهضت غاضبة على العدو ، تذود عن شرف وعد قطعه أحد رؤسائها . فكانت وقعة « ذى قار » (عام ٦١٤) ، حيث انهزم جيش ملك العجم هزيمة منكرة . وكان فى ذلك الحفاظ على عهد هانئ ، وسلامة امرأة النعمان وبناته ، وصيانة وديعته .

خامساً ــ وفاء بالعهد أثناء النزال :

حينما بلغ « الحارث بن ظالم » أن ملك الحجاز « عمرو بن عنبات » قد شكك فى مروءته وشجاعته ، ذهب إليه فى حصنه وأهاب به : « أيها الملك ، أغث ملهوفاً يستجير بك . » وخرج الملك ، فألقى الحارث عن وجهه قناعه وقال : « إننى الحارث بن ظالم ، أقبلت أحمل إليك الدليل على مضاء عزمى » . وتنازلا هزيعاً من الليل ، فلما خشى عمرو أن يظهر

عليه الحارث، استمهله إلى اليوم التالى لئلا يغلبه النعاس. فأجابه الحارث:

— ومن يضمن لى غداً ؟ فلننجز ما بدأناه . ولسوف يرقد الليلة هنا واحد منا فلا يقوم .

وواصلا القتال برهة ، ثم سقط من يد عمرو رمحه ، فتعلل بالنعاس ، وطلب وقف القتال حتى مطلع الفجر . فرفض غريمه ، وأذن له أن يستعيد رمحه .

— ولكنى أخشى أن تضربنى وأنا أتناول رمحى .

— بأبى ظالم أقسم ألا أمسك ما لم تمسك الرمح فى يدك .

— وبحق أبى عنبات أقسم ألا أقبض على الرمح وألا أعود إلى قتالك .

وبات الحارث أسير قسمه، فرجع إلى قبيلته، وترك الذى سبه آمناً[1].

سادساً — الوفاء بالعهد فى غمار المعمعة :

فى حرب البسوس التى نشبت بين قبيلتى بكر وتغلب — والتى تحدثنا فيما سبق عن أصلها — خمسة أيام أو خمس مواقع اشتهرت فى تاريخ العرب الحربى . ويقدم لنا أحد هذه الأيام — يوم قضة سنة ٨٩٥ — مثلا نفيساً من أمثلة الوفاء بالوعد . فقد حدث[2] « أن مهلهلا أسرف فى القتل

---

(١) عن الأغانى جـ ٣ ص ٧ . الأغانى الصغير جـ ٢ ص ١٢٢ .
كوسان دى برسفال جـ ٢ ص ١٩١ .

(٢) العقد الفريد جـ ٥ ص ٢٢٠ وما يليها (تحقيق) .

ولم يبال بأى قبيلة من قبائل بكر أوقع . وكان أكثر بكر قعدت عن نصرة شيبان لقتلهم كليب بن وائل . فكان الحارث بن عباد قد اعتزل تلك الحروب حين قتل ابنه بجير بن الحارث (ويقال إنه كان ابن أخيه) فلما بلغ الحارث قتله قال :

— نعم القتيل قتيل أصلح بين بنى وائل .

وظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفئاً له . فقيل له : « إنما قتله بشسع نعل كليب » . وذلك أن المهلهل لما قتل بجيراً قال :

— بؤ بشسع نعل كليب .

فغضب الحارث بن عباد . وكان له فرس يقال له النعامة ، فركبها ، وتولى أمر بكر ، فقتل تغلب ، حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب .. وكان أول يوم شهده الحارث بن عباد يوم قضة . . . وفيه أسر المهلهل وهو لا يعرفه ، واسمه عدى بن ربيعة . فقال له :

— دلنى على عدى بن ربيعة وأنا أخلى عنك .

فقال له عدى :

— عليك العهود بذلك إن دللتك عليه ؟

قال : نعم .

قال : فأنا عدى .

فجز ناصيته ، وتركه[1] .

لقد سردنا تلك الأمثلة النبيلة دون أن نعاق عليها أدنى تعليق . أو ليست تتحدث بنفسها ؟ ليت هذه العبرة تنفع أصحاب حضارة القرن العشرين ، ممن لا يرون فى الوعود سوى كلمات تلقى هينة ، وفى العقود سوى قصاصات ورق رخيصة !

---

(١) كانت عادة جز شعر المغلوبين شائعة بين أهل القرن الخامس فى فرنسا (راجع أوجستان تييرى : رسائل فى تاريخ فرنسا ، ص ٨٥) ، كما هى شائعة بين شعوب أمريكا البدائية التى حدثنا عنها كوبر (Cooper) وشاتوبريان .